

التفاعل الفكري والثقافي المتوسطي بين القرنين 19-20 م (الجزائر و بلاد الشام أنموذجا)
The Mediterranean intellectual and cultural interactions between the 19th and
20th centuries Algeria and Bilad al-Sham as examples

الطاهر سبقاق

جامعة وادي، الجزائر

sebgag-tahar@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2019/05/20 تاريخ القبول: 2019/09/19 تاريخ النشر: 2020/03/31

الملخص:

إن العلاقات التاريخية بين حوضي المتوسط مغربا و مشرقا موعلة في القدم أولا بحكم وجود الاماكن المقدسة في المشرق بالنسبة للمسلمين لذلك نرى المغاربة و غيرهم كثيرا ما شددوا الرحال الى هناك لزيارة تلك الاماكن لدوافع دينية بالأساس، ودوافع اخرى متنوعة كطلب العلم والتجارة والسياحة وغيرها. ان اغلب المهاجرين قصدوا بلاد الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة ورؤية المزارات الكبرى والبعض الآخر اتجه الى هناك بنية طلب العلم او الحصول على الاجازات الفقهية لبعض كبار علماء وفقهاء الدين الاسلامي المستقرين هناك، في حين توجه البعض الآخر من المهاجرين الجزائريين الى مصر والشام للاطلاع على مزارات اخرى وللإستزادة بالعلم و الثقافة وممارسة التجارة. اينما حل هؤلاء المهاجرون تركوا بصماتهم في مختلف المجالات و الحقول لاسيما الفكرية والثقافية والعسكرية و القضائية، ...، ارتأيت معالجة الموضوع وفق منهج تاريخي متعدد المقاربات، وصفية، تحليلية، مقارنة، لإثبات التأثير العكسي للمغرب في المشرق بعيدا عن الاعتقاد الكلاسيكي الشائع من أن المشرق يمثل دائما المركز والمغرب اطرافه فقط.

الكلمات الدالة:

الشام، التفاعل، المغاربة، المهاجرين، فلسطين، سوريا، الجزائر.

Abstract:

Historically, relations between Maghreb and Machreq Mediterranean Arab countries are so far in time. First, Maghreb peoples immigrate towards Machreq in order to visit holy Muslim sites, which mean, Most of the immigrants went to Hijaz for religious reasons, to perform rituals of Hajj and Umrah and see the great shrines;



Others went there to acquire knowledge or to obtain testimonial jurisprudence certification from senior scholars and Islamic jurists settled there, Algerian immigrants went to Machreq, especially to Syria and Palestine. They left their fingerprints in various fields, cultural, military and judicial ... I'll try here to prove the opposite impacts of Maghreb on the Machreq to destroy classical believes that Orient is always the source of all effects.

Key Words:

Levant ; Maghreb ; Machreq ; Syria ; Palestine ; Algeria

إن موضوع التفاعلات الثقافية في غاية التعقيد والاتساع نظرا لارتباطه بمختلف مناحي الحياة الإنسانية، ومع ذلك سأحاول هنا- بشيء من التركيز- تناول العلاقات الفكرية والثقافية بين الجزائر وبلاد الشام، ان ما شجّعني على ذلك هو أن جلّ الدراسات التي اطلعت عليها تخوض في المسائل السياسية وحين تتحدث عن الشخصيات العربية الفاعلة فهي لا تشير إلى الأصول القطرية لهؤلاء الفاعلين وخاصة الجزائريين منهم، وان ذكرت فهي تنعت الجميع بالمغاربة. ما استفزني أكثر هو ان جل الدراسات الأكاديمية المشرقية تؤكد دائما على تأثير المركز في الأطراف، أي تأثير المشرق في المغرب، ولا تولي أهمية للتأثير العكسي. اضطررتي المادة التاريخية المتوفرة، أو التي تمكنت من الوصول إليها، إلى التركيز على دور الجزائريين في الحياة الثقافية والفكرية بالشام لأنني لم أتمكن من الوصول إلى ما يمكن ان يكون قد لعبه بعض الشاميون في الجزائر حتى تتجلى العلاقة التفاعلية بين البلدين. إن الذي يثير الانتباه ويدعو إلى التساؤل هو لماذا توجه المهاجرون الجزائريون إلى بلاد الشام وسوريا بالخصوص؟ وكيف تعامل معهم العثمانيون و بعدهم الفرنسيون؟ وكيف تمكن هؤلاء الوافدين من ترك بصماتهم في الحياة الثقافية والفكرية هناك؟ وما هي المجالات الثقافية التي برزوا فيها؟

سوف أتناول في البداية خلفيات وجذور العلاقة بين الجزائر وبلاد الشام ابتداء من العهد الفاطمي بالتركيز على كوكبة من العلماء ورجال الفكر والثقافة الجزائريين الذين تركوا بصمات واضحة في المشهد الثقافي والفكري السوري من اواخر القرن العاشر الميلادي الى القرن السابع عشر ثم ألقى نظرة سريعة بعد ذلك على الوضع السياسي في كلا البلدين في القرنين 19 و 20 الميلاديين بغرض الوقوف على المناخ العام لهذا التفاعل ثم ألقى نظرة خاطفة على موضوع هجرة الجزائريين إلى بلاد الشام، من هم المهاجرون؟ ومن أي انطلقوا من الجزائر؟ وأين سكنوا في بلاد الشام؟ وبعد ذلك اتناول المجالات الثقافية والفكرية التي برزوا فيها.



في الحقيقة ان المصادر والمراجع التي تناولت موضوع العلاقات الثقافية بين الجزائر وسوريا قليلة جدا، فقد عثرت على كتاب المشرق في نظر المغاربة لصالح المنجد و مقال حول الوجود المغربي في المشرق المتوسطي للدكتورة ليلى الصباغ و كلاهما يتناول في عموم المغاربة في المشرق، واطلعت ايضا على كتاب "الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة" للدكتور على المحافظة والذي تناول فيه موضوع النهضة العربية بشكل عام مع اشارات عابرة لبعض الجزائريين النشطين في الحقل الجمعوي، وفي "تاريخ الجزائر الثقافي (ج5) للدكتور أبو القاسم سعد الله فيه عرض موجز لبعض الشخصيات الجزائرية في الحقل الثقافي بسوريا. كما عثرت ايضا على أطروحة ماجستير للباحثة نادية طرشون بعنوان "الهجرة الجزائرية إلى بلاد الشام بين 1847-1911" وهو يتناول موضوع الهجرة كظاهرة اجتماعية تاريخية، وفي نفس السياق و بعمق اكثر كتاب "الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام" للاستاذ الباحث عمار هلال.

هناك ايضا مرجع صاحبه غير متخصص لكنه شغوف بالبحث التاريخي ومؤلفاته ثرية بالمعلومات ولو انها احيانا غير موثقة اكاديميا ولكنها تتقاطع مع غيرها من المعلومات المؤكدة و الموثقة اكاديميا، وهي كتابات الباحث والصحفي السوري الجزائري الاصل سهيل الخالدي، وخاصة كتابه "الإشعاع المغربي في المشرق" والذي ضم في ثناياه حقائق و شهادات هامة حول دور الجزائريين في بلاد الشام . وفي نفس الخانة يمكن ان نضع الباحث والوزير والدبلوماسي السابق في سوريا كمال بوشامة والذي تعتبر كتاباته بمنزلة شهادات توثق لما كانت له من اتصالات و احتكاك مباشر بأجيال من الجزائريين سكنوا بلاد الشام منذ منتصف القرن التاسع عشر وكانت لهم علاقات عائلية و فكرية بقدامى الجزائريين الذين استوطنوا بلاد الشام، ومن ابرز كتاباته : Les Algériens de Bilad-Echam وكتب أخرى.

مثلما أسلفت حظي المجال السياسي باهتمام أكبر من الدراسات هو ما دفعني إلى التركيز على الجانب الثقافي والفكري وأنا لا أزعّم بأنني سجّلت فتحا مبيّنا تعلق بالموضوع وإنما حاولت تجميع معلومات دقيقة ومركّزة حول الموضوع من خلال قراءاتي لمن سبقوني في المعالجة وربما فتحت بذلك شبهة باحثين آخرين للمتابعة.

1- خلفيات الاتصال بين الجزائر وبلاد الشام

بلا شك ان الحديث عن العلاقة بين الجزائر وبلاد الشام او ما كان يسمى ببلاد "الليفانت"¹ هو جزء من السياق العام للعلاقة بين المغرب والمشرق، وفي هذا السياق يلقي الباحث صعوبة كبيرة تتمثل في أن المؤرخين القدامى المهتمين بتاريخ الشام أمثال ابن خلكان



وابن عساكر والذهبي والأنطاكي والمقرئزي يطلقون تسمية المغاربة على كل القادمين من الغرب ابتداء من مصر حتى مراكش بل وإلى الأندلس أحيانا، وهو ما يجعل مهمة الفرز لدى الباحثين في غاية التعقيد لضبط أصول هؤلاء والجزائريين منهم حصرا في موضوعنا هذا.

إن المشرق العربي عامة كان منذ الفتح الإسلامي: "قبلة أنظار أهله (المغرب) ومهوى أفئدتهم، ففيه حجهم وفيه الكعبة المكرمة، قبر النبي، والمزارات الكبرى، وكل المواقع التي عاشتها الرسالة الإسلامية في مطالع انتشارها² ولم تكن مقاصد المغاربة لبلاد الحجاز ومصر فقط بل أن بلاد الشام كانت هي الأخرى غاية من غاياتهم على الرغم من بعدها عن الطريق التقليدية للحج" بل أن بعضهم قد أثرها على وطنه وأقام بها وتزوج منها وتعلم وعلم بها وقد يمكث بعضهم زمنا بها ثم يعود إلى بلاده³. بالإضافة إلى الاغراض الدينية شجعت العوامل الجغرافية الطبيعية على انتقال المغاربة إلى بلاد الشام نظرا للتشابه الشديد بين طبيعة المنطقتين حيث لا يشعر الوافد إليها بالغربة أو صعوبة التأقلم⁴ وقد أشار المقرئ في كتابه نفح الطيب إلى أن التشابه كبير بين دمشق وتلمسان وفاس⁵.

كما كان للدوافع العلمية أثرها الكبير في انتقال المغاربة لبلاد الشام ولاسيما حاضرة دمشق التي كانت منارة من منارات الإشعاع العلمي والثقافي. ولا يمكن بأي حال من الأحوال إهمال الدوافع الاقتصادية وخاصة التجارية التي دفعت بالكثير من الجزائريين وغيرهم إلى التنقل خارج ديارهم إذا تتبعنا آثار الجزائريين في بلاد الشام فإننا نجد بصماتهم تعود إلى العهد الفاطمي في مصر وبلاد الشام بين أواخر القرن 4 و 6 الهجريين (10 و 12 الميلاديين) ، اين اشرفت قبيلة كتامة المغربية على تسيير البلاد إداريا وقضائيا وعسكريا (ولاية وقضاة وضباط) من أهم أعلام المغاربة بالشام ابتداء من العهد الفاطمي : إذا تتبعنا آثار الجزائريين في بلاد الشام فإننا نجد بصماتهم تعود إلى العهد الفاطمي في مصر وبلاد الشام بين أواخر القرن 4 و 6 الهجريين (10 و 12 الميلاديين) ، اين اشرفت قبيلة كتامة المغربية على تسيير البلاد إداريا وقضائيا وعسكريا (ولاية وقضاة وضباط)⁶.

من أهم أعلام المغاربة بالشام ابتداء من العهد الفاطمي :

- في القرن 10 م:

- جعفر بن فلاح الكتامي (360هـ - 971م) قائد عسكري امتلك دمشق بأمر من المعز الفاطمي.

- في القرن 12 م :

- أبو محمد الاشيري الصنهاجي (661هـ - 1165م) محدث ونحوي بدمشق.

- أبو الحسن القسنطيني (519هـ - 1125 م) عالم في كيمياء الفضة بدمشق.
- محمد بن محرز بن محمد الوهراني (575 هـ-1179 م) خطيب دمشق.
- في القرن 13 م :
- أبو الفرج البوني (612 هـ - 1215 م) إمام محراب الحنفية بدمشق.
- ضياء الدين الزواوي (644هـ-1245م) مدرّس بالزاوية المالكية بدمشق.
- زين الدين الزواوي (564-628 هـ -1169-1231م) مدرّس بدمشق .
- الشاب الظريف ابن العفيف (668 هـ -1289م) محافظ الخزانة بدمشق حتى وفاته.
- أبو محمد الزواوي (589-681هـ-1193-1282م) مقرئ و قاضي دمشق .
- العفيف التلمساني (610هـ-1213م) محافظ خزانة دمشق.
- ابوبكر الوهراني (615 هـ - 1219م) خطيب بجامع داريا بدمشق ⁷.
- في القرن 14م:
- ابن أبي حجلة (776 هـ-1375م) درس في دمشق وترك هناك أزيد من 80 كتابا .
- أبو الروح المنكلاتي الزواوي (664-743 هـ - 1261 - 1342 م) نائب قاضي دمشق.
- سعيد الملياني (771هـ - 1369م) مقرئ بدمشق .
- محمد بن يحيى التلمساني (794هـ - 1392م) قاضي حماء و طرابلس و بدمشق .
- في القرن 15م:
- أبو جعفر محمد البسكري المغربي الفقيه المالكي(804هـ - 1402 م) والذي درس المذهب المالكي في الجامع الأموي.
- احمد السنوسي (القرن 9 هـ - 15م) قاضي دمشق .
- سالم الصنهاجي (777-873 هـ - 1375-1468م) قاضي المالكية بدمشق و القدس
- بو العباس المغراوي (820هـ - 1417م) مدرّس بالمدرسة الزنجلية بدمشق .
- في القرن 17م :
- ابن قنفذ القسنطيني (1015هـ - 1606م) باحثو مؤرخ بدمشق.
- يحيى الشاوي (1030 - 1096 هـ / 1621- 1684 م) انتقل إلى المشرق العربي سنة 1074 هـ
- 1663 م إلى مصر ثم دمشق اين كان له مجلس علمي مهيب بالجامع الأموي مدحه الشعراء وحضره العلماء وطلب بعضهم منه الإجازة كالمحيي صاحب (خلاصة الأثر)، وقد كان متضلعا بالحديث والفلسفة والمنطق.⁸



- احمد شهاب الدين المقرئ (986-1041 هـ - 1578-1631) ولعله من ابرز الجزائريين الذين تركوا بصماتهم في دمشق فقد وصف المحي الجلسة التي ختم فيها المقرئ "صحيح البخاري" بالجامع الأموي وصفا ممتعا يبين لهفة أهل دمشق وطلبة العلم فيها لسماعه وتأثرهم بدرسه وحديثه حتى ازدحم الناس لتقبيل يده⁹ ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين على دمشق ما اتفق له من الخطوة وإقبال الناس¹⁰، وقد استجاب المقرئ لرغبة علماء دمشق وأدباءها وألف كتابه الشهير حول شاعر غرناطة ووزيرها لسان الدين ابن الخطيب المسعى "نفع الطبيب..." والذي يعدّ موسوعة أدبية في 8 مجلدات¹¹.

وتجدر الإشارة إلى أنني عثرت على كثير من أعلام الجزائريين في المشرق العربي والشرق الإسلامي عموماً مثل لبنان و فلسطين مصر والحجاز والعراق و اليمن و الهند و إيران و باكستان وتركيا إلا أنني لم أذكرهم لأنني من البداية ركزت على سوريا فقط كما أنني لم أشر إلى الذين برزوا منهم في المجال السياسي والعسكري إلا إذا كانت لهم بصمات اضافية في الحياة الفكرية والثقافية بسوريا.

2 - الوضع السياسي في البلدين:

أ- في الجزائر:

كانت الجزائر في بداية القرن 19 تابعة اسمياً وروحياً للدولة العثمانية ، التي وصفت انذاك بالرجل المريض، وكانت الأيالة الجزائرية في عهد الدايات (1671م-1830م) وهو العهد الذي عرف بعهد الاستقلالية عن الباب العالي وشهد صراعات سياسية عنيفة بين الحكام ، ففي العقود الثلاث الأولى من القرن 19 تعاقب على حكم أياالة الجزائر ثمانية دايات: السبعة الأوائل منهم وصلوا لسنّة الحكم بعد اغتيال الدايات الحاكم قبلهم باستثناء الدايات الأخير أي الدايات حسين باشا الذي خلف والده المتوفى بسبب المرض¹².

وقد كان اهتمام هؤلاء الدايات منصباً على مواجهة التحرّشات الأجنبية والجهاد البحري وجباية الضرائب لذلك لم يحظ الفكر والثقافة في عهدهم بالاهتمام اللائق بهما، وهذا ليس في الايالة الجزائرية فقط فهو قابل للتعميم في معظم الولايات العثمانية كما يؤكد ذلك محمد كرد علي في كتابه "الإسلام والحضارة العربية" : " فقد دخل الأتراك دمشق وفيها أكثر من مائة وخمسين مدرسة للقرآن والحديث والفقه على المذاهب الأربعة، ومدارس الطب والهندسة عدا الربط والخوانق والمستشفيات، وخرجوا منها بعد زهاء أربعة قرون وليس فيها بضعة مدارس عامرة ..."¹³.



يمكن القول أن المشهد الثقافي في الجزائر كان يعتمد في تجلياته على ما جادت به قرائح الجزائريين من وحي الأمل والأمل، الألم مما كابدته الثقافة من الإهمال والمثقفين من التهميش والإقصاء، ذلك الألم الذي كان دافعا قويا للتفكير والتحليل والتأليف في مختلف ضروب الثقافة والفنون، والأمل في ما هو أفضل من ظروف تخدم الثقافة والمثقفين. على الرغم من أن آخر الدايات، الداى حسين، حكم أطول فترة- دامت (12 سنة) 1818-1830- شيد خلالها الكثير من الحصون والمساجد والقصور و ادخل العديد من الإصلاحات الإدارية والعسكرية لكنه لم يحقق انجازا ثقافيا واحدا جدير بالذكر بل في نهاية عهده استسلم وسلم مفاتيح الدولة الجزائرية لقائد الحملة الفرنسية الاستعمارية الجنرال دي بورمون في صائفة 1830¹⁴ انشغل الفرنسيون في بداية احتلالهم للجزائر ببسط نفوذهم وتمكين انفسهم في باقي المناطق الداخلية ومواجهة الثورات الشعبية هنا وهناك، وقد ساعد ذلك الانشغال على استمرار الفعاليات الثقافية في نشاطاتها ولو بشكل محتشم من خلال الكتابات والجمعيات والنوادي والصحف والمساجد والزوايا وهي نشاطات غلب عليها الطابع الديني والاجتماعي بالأساس. مع بداية النظام المدني الاستعماري الفرنسي عام 1870 في الجزائر لجأ الفرنسيون إلى سن تشريعات وإقامة هيكل لمراقبة ومتابعة الحياة الثقافية في اطار خدمة مصالح الإدارة الاستعمارية وأهدافها تمهيدا لطمس معالم الشخصية الجزائرية في إطار سياسة الإدماج بمفهومها الواسع، وقد استمرت عيون الفرنسيين "ساهرة" على مراقبة المشهد الثقافي الجزائري بل وارتفع سقف التخوفات الفرنسية و ازداد التضيق على الفعل الثقافي في بداية القرن 20 لما بدأت تباشر النهضة العربية في المشرق العربي تلوح في الأفق وتزامنت ايضا مع إرهابات الحرب العالمية الأولى الناجمة عن تأزم العلاقات الدولية بين دول الحلف الثلاثي والوفاق الثلاثي.

ب- في سوريا:

تقاطعت التواريخ بين الجزائر وسوريا: كلاهما وقع تحت النفوذ العثماني في بداية القرن 16 (سوريا 1516/ الجزائر 1518) وحين وقعت سوريا تحت سيطرة محمد علي 1831 وقعت الجزائر تحت السيطرة الفرنسية، وكان يقود سوريا إبراهيم باشا ابن محمد علي (1831-1840) وانطلقت المقاومة الشعبية في الجزائر المغتصبة بقيادة الأمير عبد القادر (1832-1847). قد اختلفت طبيعة دخول العثمانيين إلى كل من الجزائر و سوريا، فبينما استنجد سكان الجزائر بالعثمانيين لمواجهة الخطر الاسباني والبرتغالي، في حين تم إخضاع سوريا بالقوة للسلطة



العثمانية، ليس فقط سوريا بل منطقة الهلال الخصيب ومصر كليهما بعد معركتي مرج دابق¹⁵ و الريدانية¹⁶ وبقيت تحت حكمها لمدة زادت عن أربعة قرون ولم تختلف سياسة الدولة العثمانية في سوريا عن سياستها في الجزائر فيحكم القرب الجغرافي من عاصمة الخلافة كانت قبضة الدولة في سوريا أقوى وأثرها أعمق لاسيما من خلال سياسة التتريك وفرض الضرائب على السكان وقمع الحركات المعادية للأتراك .

وقد ساهم اختلاف شخصية الولاة في اختلاف معاملاتهم وعلاقاتهم مع الشوام ففي حين عرف عهد جمال باشا (السفاح) واحمد باشا (الجزّار) بسفك الدماء عرفت عهود مدحت باشا وحمدي باشا وناظم باشا ظروف أحسن وعلاقات أكثر وداً وانسجاماً مع السكان وكان ذلك استثناء يؤكد قاعدة الصدام والتصادم مع السلطة العثمانية إلا أن ذلك في حد ذاته كان له تأثيراً عكسياً زرع بذور اليقظة والنهضة الفكرية والثقافية إلى جانب الاستفادة من الانفتاح الذي عرفته سوريا في عهد محمد علي (1831-1840) على الحضارة الغربية .

انتعشت الحياة الثقافية في سوريا بفضل حركة النهضة العربية وحركة الجامعة الإسلامية ومنظريها، وكذلك نشاط المسيحيين العرب الذين كانوا أكثر عداءاً للدولة الإسلامية العثمانية متأثرين بالدعاية الأوروبية البريطانية والفرنسية، في هذا الجو بالذات ظهرت كوكبة من المفكرين والمصلحين ساهمت في إثراء المشهد الثقافي والفكري في سوريا وجعلت منها منارة ومقصداً لكثير من المهاجرين العرب . في نهاية الحرب العالمية الأولى ولما كانت فرنسا تستعد لامتنصاص غضب الجزائريين بإصدار حزمة إصلاحات جزاء المشاركة إلى جانبها في الحرب الكبرى، في نفس هذه الظروف بالشرق كانت فرنسا تناور وتداول لتنفيد اتفاقية سايكس-بيكو ومن خلالها بسط النفوذ الفرنسي على سوريا ولبنان وكان لها ذلك حيث وقعت سوريا ولبنان في شباك الاستعمار الفرنسي بعد مؤامرة محبوكة مع بريطانيا عام 1920.

3 - هجرة الجزائريين إلى بلاد الشام:

تعددت وجهات المهاجرين الجزائريين، منهم من فضلّ الجارتين تونس والمغرب في حين قصد البعض الآخر الحجاز، وتوجّه آخرون إلى بلاد الشام، ويمكن القول أن هجرة الجزائريين نحو المشرق العربي خلال العهد العثماني كانت هجرة اختيارية لأغراض دينية أو علمية أو تجارية أو للأغراض الثلاثة مجتمعة، وبطبيعة الحال لم يكن ذلك التنقل بمقدور كل الجزائريين، أما بعد الاحتلال الفرنسي فهي هجرة اضطرارية تحتمت على الجزائريين حفاظاً على أرواحهم وأعراضهم ودينهم لذلك تراهم قصدوا ديار الإسلام والعروبة في بلاد الشام



وخصوصا سوريا التي استقطبت اكبر عدد من المهاجرين الجزائريين الأوائل خاصة بعد هزيمة الأمير عبد القادر وكان هؤلاء من أتباعه ثم التحق بهم الأمير بعد إطلاق سراحه سنة 1852 ليصل إلى سوريا سنة 1856 وتستمر جسور الاتصال بين هؤلاء المهاجرين الأوائل وأهاليهم في الجزائر¹⁷.

حسب الباحث سهيل الخالدي في كتابه "الإشعاع المغربي في المشرق" فإنه يمكن تقسيم هجرة الجزائريين إلى أربع موجات تبدأ أولاها سنة 1847 وأخراها سنة 1914 الأولى هجرة احمد بن سالم خليفة الأمير وشيخ الطريقة الرحمانية محمد المهدي السكلاوي والمبارك الطيب ومحمد بن عبد الله الخالدي ثم الثانية بعد هزيمة المقراني والحداد 1871، أما الموجة الثالثة فهي بتشجيع من النظام الاستعماري قصد مصادرة أراضي المهاجرين وتمليكها للمعمرين الاوروبيين خاصة في عهد الحاكم العام "بوجو" وبعده "جول كامبون" هذا من جهة ولاستغلال المهاجرين (بل المهجرين) كرعايا فرنسيين في تراب الدولة العثمانية من جهة أخرى¹⁸. أما الموجة الاخيرة بين 1900-1914 فقد وقعت بسبب الضغط والخناق المفروض على الجزائريين خاصة في عهد الحاكم العام "جونار". ارتفعت وتيرة وتواتر الهجرة بعد إصدار قانون التجنيد الإجباري 1911 الذي فرض على الجزائريين الاشتراك مع عدوهم في حرب لا تعنيهم لا من قريب ولا من بعيد .

تجدر الملاحظة أن الذين هُجّروا (بطريقة مباشرة أو غير مباشرة) هم أكثر من الذين هاجروا من تلقاء أنفسهم، كما أن معظم المهجرين الأوائل في أواخر النصف الأول من القرن 19 كانوا من العلماء والفقهاء والمشايخ والعائلات الثرية أما الموجات اللاحقة فكانت متنوعة فيها الجنود والفلاحين والتجار والعائلات الفقيرة، ومن المؤكد أن الأمير وعائلته وأتباعه هم أقطاب هذا الجذب نحو سوريا، كما يلاحظ أن أغلب المهاجرين من الشرق الجزائري وبالأخص من بلاد القبائل، ومن الغرب تلمسان بين 1909-1911 وهي الهجرة التي أقلقّت الفرنسيين كثيرا¹⁹ وأوفدت فرنسا بسببها لجنة تحقيق في الموضوع، وقد قدّرت القنصلية الفرنسية عدد الجزائريين في دمشق بـ4000 جزائري بينما قدّرهم الأمير عمر بـ17500²⁰.

إن أغلب الوافدين الجزائريين إلى سوريا استقروا بدمشق و غوطتها و حوران وقد تعددت نشاطات هؤلاء المهاجرين و المهجرين فقد مارس بعضهم التعليم والإفتاء والقضاء و الخدمة في الجيش ومنهم من احترف الزراعة والتجارة. وعلى سبيل المثال اليكم هذه المجموعة من



الشخصيات الجزائرية المهاجرة التي ذاع صيتها في بلاد الشام والذين سأذكر بعضهم في سياق البحث:

- محمد المهدي السكلاوي
 - محمد الطيب المبارك
 - محمد المبارك بن محمد المبارك
 - صالح السمعوني
 - طاهر السمعوني (طاهر الجزائري)
 - سليم السمعوني (ابن أخ طاهر)
 - أحمد الطيب بن سالم
 - الحاج علي بوطالب
 - محمد المصطفى بن التهامي
 - محمد الخروبي القلعي
 - محمد بن يّس بن شاويش
 - محمد بن عبد الرحمان الهاشي
- هذا علاوة على ما قدّمته عائلة الامير عبد القادر الجزائري من شخصيات بارزة من ابناء واخوة و احفاد امثال:
- أبنائه و عددهم 10 لكن أكثرهم شهرة :
- الأمير محمد بن عبد القادر
- الأمير عبد الملك بن عبد القادر (عاش و كافح و توفي في المغرب الأقصى)
- الأمير علي بن عبد القادر
- الأمير عمر بن عبد القادر
- الأمير الهاشي بن عبد القادر
- الأمير محي الدين بن عبد القادر
- أما إخوة الأمير عبد القادر الجزائري فهم :محمّد، السعيد، مصطفى، احمد، الحسين²¹.
- ومن احفاده المشهورين الامير خالد و الامير محمد سعيد الجزائري.
- 4 - اسهامات الجزائريين في الحياة الفكرية والثقافية بسوريا



بعد استقرارهم في بلاد الشام واندماجهم بسكانها انتشر الجزائريون في مختلف ربوع الشام ولم يساورهم أي شعور بالغربة فهم بين أهلهم في بلاد العروبة والإسلام لذا تراهم مارسوا كل الأعمال والحرف وقد برز بعضهم بشكل ملفت للانتباه في المجال الثقافي ولا غرابة في ذلك اذا عرفنا أن المهاجرين الأوائل كان معظمهم من العلماء والفقهاء والمتصوفين كما اسلفت.

كان الجو العام السائد في بلاد الشام جد مشجعا على البروز في هذا المجال بسبب التفاعلات المختلفة بين التيارات السياسية والفكرية والدينية التي جاءت كردود أفعال على السياسة العثمانية من جهة وكذلك بحكم طبيعة تركيبة المجتمع الشامي المتنوعة أصلا، لذا نجد المهاجرين الجزائريين تموقعوا في مختلف حقول الفكر والثقافية.

أ - مجال التعليم:

برز الكثير من الجزائريين وخاصة من عائلة الأمير وأتباعه في هذا المجال درسوا ودرّسوا وساهموا في إنشاء مدارس تخرج منها وعلى أيديهم العديد من العلماء وكبار المفكرين الشاميين ومن الشخصيات الهامة في هذا الحقل نذكر الأمير أحمد بن محي الدين والأمير محمد بن عبد القادر وأحمد بن محمد التلمساني وأحمد الغريسي الجزائري ومحمد بن عبدالله الخالدي ومحمد المبارك وأبو يعلى الزواوي وأحمد جودت الهاشمي وأحمد زروق وصالح السمعوني ولعل أشهرهم وأكثرهم تأثيرا الشيخ طاهر الجزائري الذي أسس وساهم في الكثير من المدارس ودور الثقافة والمكتبات في بلاد الشام²². ومن أهم المدارس التي ساهم الجزائريون في تأسيسها أو تأطيرها:

- مدرسة "عنبر"
- مدرسة الإرشاد والتعليم
- المدرسة الريحانية
- مدرسة ابن خلدون
- مدرسة النهضة العلمية
- مدرسة دوحة الأدب²³

ب - مجال الصحافة :

عملت الدولة العثمانية على عزل بلاد الشام وحاولت سد قنوات الاتصال بين الشاميين وباقي المشرق وخاصة مصر التي كانت تشهد زخما إعلاميا كبيرا وكذلك مع أوروبا النهضة



والثورة الصناعية إلا أن هذه السياسة في حد ذاتها كانت عاملاً مشجعاً على كسر جدار العزلة وقد ساهم الجزائريون في ذلك من خلال إنشاء الصحف مثل "المهاجر" على يد الأمير سعيد الجزائري وصحيفة "الوحدة الإسلامية" برعاية سليم الجزائري وصحيفة "المفيد" التي يديرها عبد الغني الغريسي، هذا بالإضافة إلى إسهامات الجزائريين بكتاباتهم في الصحف السورية حول المواضيع السياسية والفكرية والدينية والتربوية المطروحة آنذاك .

ومن الأعلام الصحفية البارزة التي تتلمذ أصحابها على أيدي علماء جزائريين في أواخر القرن 19 وبداية القرن 20 : محمد بن التهامي، سعيد بن قاسم الجزائري، سهيل الخالدي، يحيى يخلف، التهامي شطّة، محمد مرتضى الحسني الجزائري، محمد بوعزة، عدنان الراشدي، عبد الهادي لمبارك²⁴.

ج - مجال الجمعيات :

شهدت بلاد الشام تأسيس العديد من الجمعيات السرية منها والعلنية والتي قامت بدور كبير في التوعية والتثقيف وجمع ما شتتته السياسة العثمانية ومن الجمعيات الهامة التي ظهرت في القرن 19 و التي ساهم في تنشيطها وتمويلها آل السمعوني الجزائريين وعائلة الأمير عبد القادر جمعية " المقاصد الخيرية المغربية الإسلامية" والتي مازال نشاطها مستمر إلى اليوم، ومع بداية القرن 20 تكاثرت هذه الجمعيات وازداد نشاطها سرا وعلانية وقد شارك في نشاطها الكثير من الجزائريين وقد كان نشاطهم يجمع بين الأدوار السياسية والثقافية والدينية، ومن هذه الجمعيات:

- جمعية النهضة العربية (1906) ظهرت تحت تأثير حلقات الشيخ طاهر الجزائري

- جمعية الإخاء العربي-العثماني (1908) برز فيها الأمير محي الدين الجزائري

- المنتدى الأدبي (1908) وقد برز فيها سليم الجزائري

- الجمعية القحطانية (1909) وقد برز فيها كذلك سليم الجزائري

- جمعية العهد (1913) وقد برز فيها أيضا سليم الجزائري²⁵

د - مجال الآداب والفنون:

ظهرت العديد من الشخصيات ذات الأصول الجزائرية في هذا الحقل مثل يحيى يخلف الذي تألق في مجال القصة القصيرة والرواية وله العديد من المؤلفات... وكذلك أستاذ الموسيقى المنشد أحمد زروق الذي درّس الموسيقى في مدرسة "عنبر" لمدة زادت عن 20 سنة



مما أكسبه شهرة واسعة في المشرق العربي وحتى في تركيا حيث استدعاه السلطان العثماني وأقام عنده لأكثر من شهرين²⁶.

رأينا كيف كانت العلاقة بين الجزائر وسوريا موعلة في القدم حيث تعود إلى أواخر القرن العاشر الميلادي حيث أين لعب الجزائريون دورا بارزا في تمكين الدولة الفاطمية في بلاد الشام ، ثم تقاطع وتشابه تاريخ البلدان خلال العهد العثماني حيث لم تكن الظروف مواتية للفعل الثقافي بسبب السياسة العثمانية وبسببها الضغط العثماني في نفس الوقت تفتقت قرائح العرب مشرقا ومغربا، بعد ذلك تحل فرنسا مكان العثمانيين في البلدين، وبشكل مبكر في الجزائر، وتبدع السياسة الاستعمارية الفرنسية مرة أخرى في تكميم الافواه وتعطيل العقول إلا أن ذلك لم يمنع الجزائريين في الجزائر أو في سوريا من الحركة والعمل الثقافي بكل أشكالهما بل أن تلك الظروف كانت حافزا للتحدي والمواجهة، وقد اختلفت تركيبة المهاجرين الجزائريين الى بلاد الشام واختلفت مواقع انطلاقهم من الجزائر ومقاصدهم في بلاد الشام ، ووقفنا اثناء ذلك على أهمية الموجة الأولى في نهاية النصف الأول من القرن 19 والتي كان قوامها العلماء والفقهاء وعلاقتها بالأمير عبد القادر وعائلته وهي المجموعة النواة أو المحور الذي سيكون المرجع ونقطة الانطلاق للعمل الثقافي في بلاد الشام، ووصلنا في النهاية إلى أهم المجالات الثقافية التي ساهم المهاجرون الجزائريون في تنشيطها وقد كانت متنوعة إلا أنهم كانوا أكثر حضورا في المجال التعليمي بمفهومه الواسع أي التعليم الديني والديني ومع ذلك يبقى هذا الموضوع بحاجة إلى معالجات أعمق وأوسع لما له من أهمية في تاريخ البلدين وتبقى الكثير من التساؤلات مطروحة لاسيما دواعي اختيار سوريا كمقصد للمهاجرين وعلاقة هؤلاء بالوطن الأم وكذلك البحث في الاتجاه الآخر أي دور الشاميّين في الحياة الثقافية بالجزائر والذي لا نعرف عنه الا ما تم بين الدولتين المستقلتين من اتفاقيات تعاون في مجال التعليم و التي توافدت على اثرها كوكبة من المعلمين والاساتذة للتدريس في المدارس الجزائرية.

الهوامش :

¹ الليفانت: Levante او Levant تعني الشروق او بلاد الشرق وهي تسمية اطلقها في القرون الوسطى اهالي مدينتي جنوة Genova و البندقية Venice الايطاليتين على الجزء الواقع على الشواطئ الشرقية



للمتوسط، شاعت التسمية خلال القرن التاسع عشر وأقلع المهتمون بالمنطقة عن استعمالها في النصف الثاني من القرن العشرين، انظر: زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، ص 10.

² ليلى، الصباغ، الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث، المجلة التاريخية المغربية، العدد 7، 8-1977.

³ صلاح الدين، المنجد، المشرق في نظر المغاربة، بيروت 1963، ص 20.

⁴ F.Braudel. La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Phillipell, Paris, 1949, p 201.

⁵ أحمد شهاب الدين، المقرئ: نفح الطيب، دار صادر، م، 1، بيروت، 1988، ص 65 - 66

⁶ عبد السلام، تدمري، (2009) المغاربة في ساحل الشام، من الموقع التالي: <http://www.attajdid.ma/def.asp?codelangue=6&infoun=34467>، 8-9-2009

⁷ عادل، نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980 و"معجم مشاهير المغاربة"، فرقة بحث علي تحت إشراف د/بوعمران الشيخ و د/ناصر سعيدوني، جامعة الجزائر 1995.

⁸ نفسه.

⁹ ليلى، الصباغ، المرجع السابق.

¹⁰ محمد بن فضل الله، المحي. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج 1، ص 305.

¹¹ بوعمران، الشيخ و ناصر، سعيدوني، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر 1995، ص 507 - 512.

¹² عبد الرحمان، الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت 1980، ص 566.

¹³ محمد كرد، علي، الإسلام والحضارة العربية، ج 2، دار الفكر، دمشق، 2003، ص 326.

¹⁴ عبد الرحمان، الجيلالي، المرجع السابق، ص 331.

¹⁵ وقعت معركة مرج دابق في 24 أغسطس 1516 بين العثمانيين والمماليك قرب حلب في سوريا، قاد العثمانيين سليم الأول وقاد المماليك قانصوه الغوري. انتصر فيها العثمانيون ليبدأ بعدها الحكم العثماني لسوريا.

¹⁶ وقعت معركة الريدانية بتاريخ 29 ذي الحجة سنة 922 الموافق 22 كانون الثاني 1517 م، بين طومان باي والسلطان سليم الأول العثماني و انتهت بهزيمة طومان باي وإعدامه و إنهاء حكم المماليك وبداية الحكم العثماني لمصر.

¹⁷ سهيل، الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق، دار الأمة، الجزائر 1997، ط1، ص 31-34.

¹⁸ أبو القاسم، سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ط 3، ص 129.

¹⁹ أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص 481.

²⁰ نادية، طرشون، الهجرة الجزائرية إلى المشرق العربي 1847-1911. (أطروحة ماجستير). مكتبة الأسد، دمشق، ط8، ص 177. وعادل، نويهض، أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980، ص 67 - 283.

²¹ أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص 521 - 569.



-
- ²² سهيل، الخالدي، المرجع السابق، ص 221- 227 .
- ²³ نفس المرجع، ص 227- 229.
- ²⁴ سهيل، الخالدي، المرجع السابق، ص 116 - 123.
- ²⁵ على، المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1978، ط2، ص 132 – 144.
- ²⁶ سهيل، الخالدي، المرجع السابق، ص 229.